الانـزيـاح من منظور شجاعة العربية
بـيـن الـمـعـيـار والانـزيـاح

أ. مختار بن قويدر
جامعة معسكر

قبل معالجة موضوع البحث، حري بنا أن نشير إلى أنّ المدونة النقدية-قديما وحديثا- قد تفاعلت مع مصطلح الانزياح إيجابا منذ البداية، على عكس بعض المصطلحات والمواضيع – كالسرقات مثلا- التي نظر إليها البعض نظرة ريب وتنقّص .

إذ عدّ بعضهم إشكالية الانزياح أو العدول من شجاعة العربية وإقدامها على خرق أفق انتظار المتلقي، وكسر الرتابة المقيتة، للوصول إلى غاية الإمتاع ورونق الإبداع.

وشجاعة العربية تعني إقدام المبدع على أسلوب مشوّش ومستفزّ (Provoqué)من شأنه كسر الرتابة والخروج عن المعيار وخرق المألوف لدى القارئ، أو خرق أفق انتظاره، بعناصر مفاجئة تجمّل النص الأدبي وتعمل على إنتاجية الدلالات من خلال علائق كثيرة تتولّد من خلال القراءات المتعددة.

وفي النقد الأدبي الحديث يعتمد الكثير من النظريات الشعرية في تفسير الفاعلية الشعرية على الانزياح. وهو هنا ترجمة لكلمةEcart ، فالذي يحدد الواقعة الشعرية في نظر روادها هو انزياحها عن سنن اللغة. والحديث عن الانزياح يفترض وجود أصل ينزاح عنه هو المعيار" La norme "(1).

يعد الانزياح ظاهرة أسلوبية ترتبط بخصائص اللغة الشعرية المتميزة بطبيعتها عن لغة النثر، وهو في أبسط تعاريفه خروج عن المألوف أو النمط اللغوي لغاية فنية (2).

وهو من الظواهر المهمة وبخاصة في الدراسات الأسلوبية والألسنية الحديثة،التي تدرس النص الشعري على أنه لغة مخالفة للمألوف والعادي (3)، وقد وصفت ظاهرة الانزياح بعدة تعابير اصطلاحية، مثل: الجسارة اللغوية والغرابة والشذوذ اللغوي، والابتكار والعدول، والازورار والاتساع (4)..و غير ذلك.

والانزياح يعني خروج التعبير عن السائد أو المتعارف عليه قياسا في الاستعمال، رؤية ولغة وصياغة وتركيبا؛ فالانزياح يعني البعد عن مطابقة القول للموجودات، مثل هذا البعد له أنماطه الأسلوبية التي تتحدد كأنماط غير مباشرة، هذه الأنماط تستعين بأدوات لغوية عديدة،أو بتقنيات لغوية جديدة. (5)

وقد اهتم علماء الأسلوب في العصر الحديث بهذه الظاهرة اهتماما كبيرا، حتّى عرّف فاليري الأسلوب" بأنه انحراف عن قاعدة ما"(6)و يرى بعض النقاد المحدثين أن الشعر انزياح عن معيار هو قانون اللغة، ولكنه ليس انزياحا عشوائيا، ويذهب إلى أن الانزياح هو الشرط الضروري لكل شعر، بل لا يوجد شعر يخلو من الانزياح.(7)

كما أكد نقاد العصر الحديث أنّ الدراسات الأسلوبية تختلف باختلاف الموقع الذي تنطلق منه، والرؤية التي تحملها. ونستطيع من خلال دراسة قدمها "جورج مونان"، أن نوجز، في ثلاث نقاط، المنعطفات النظرية للدراسات الأسلوبية، سعيا وراء تعريف كل منها للأسلوب، وتحديد رؤيتها له.

وفي هذا الباب نجد "جورج مونان" يقول: ثمة أسلوب بالنسبة إلى بعضهم، عندما تحتوي العبارة على انزياح يخرج بها عن المعيار.فقولنا:"البحر أزرق" لا يتجاوز كلام كل الناس.إنه الدرجة الحيادية، أو الدرجة صفر للتعبير. ولكن أن نبتدع كما ابتدع"هوميرّ" فنقول:" البحر بنفسجي"، أو " البحر خمري"، فإنّ هذا يمثل حدثا أسلوبيا" (8)

أنواع الانزياح:

لقد درس عدد كبير من الباحثين الانزياح في اللغة والأدب، وإذا كنا هنا لا يسعنا أن نقف على مجمل هذه الدراسات أو بعضها، فإنه يمكننا ،مع ذلك، أن نقول بصورة مبدئية قبل أن نأتي بتعريف له: ثمة أنواع من الانزياح، نذكر منها:

1- انزياح عنصر من العناصر المكونة للنص عن مقصود عنصر سابق عليه، مما يؤدي إلى قطع التتابع الدلالي، وكسر السياق، وتمزيق التناغم الداخلي، وتفتيت الوحدة المعرفية الأساسية لتنامي النص، وجعلها وحدات يربط بينها عنقود الوزن وعقد الإيقاع. وقد سمى العرب هذا الضرب من الانزياح:المتنافر. ومثال ذلك قول حبيب بن أوس:

محمد إن الحاسدين حشود وإن مصاب المزن حيث تريد

2-انزياح النص عن وحدته المنطقية، واحتواؤه على المتناقضين، كقول أبي تمام:

لعب الشيبُ بالمفارق بل جد فأبكى تماضرا ولعوبا
يا نسيب الثُغام ذنبك أبقى حسناتي عند الحسان ذنوبا
ولئن عبن ما رأين لقد أنكرن مستنكرا وعبن معيبا

حيث نجد النص يضع أمامنا صورة لحسان يبكين مشيب الرجل،أولاً،ثم يفاجئنا فيكشف عن معنى آخر يعبن فيه الرجل على مشيبه.

3- مخالفة النص لنفسه وانزياح العبارة فيه عن غاية المتكلم.فقد ذكر المرزباني أن أبا تمام قال مادحا:

و كن كريما تجد كريما تحظى به يا أبا المغيث

وقوله :كن كريما إنما يقال للئيم.(9)

4- انزياح النص عن الشيفرة اللغوية المتعارف عليها، كقوله تعالى:" وهو الذي جعل لكم الليل لباسا" فلفظ اللباس ليس من خواص الليل، كقولنا:ط الليل مظلم أو أسود، أو مخيف"، إلى آخره. والجدير بالذكر، أنّ كل هذه الأمثلة ما كانت لتؤدي وظائفها لو لم تكن قائمة على هذا النوع من الانزياح أو ذاك.و هذا يعني أن الوظيفة هي التي تعطي الأسلوب الذي يتجلى التعبير فيه هيأته المخصوصة التي خالف فيها المعيار وانزاح عنه، وإذا كان هذا هكذا، فإنه يمكن تحليل الانزياح على النحو التالي:

ثمة معيار يحدده الاستعمال الفعلي للغة. ذلك لأن اللغة نظام، وإن تقيد الأداء بهذا النظام هو الذي يجعل النظام معيارا ويعطيه مصداقية الحكم على صحة الإنتاج اللغوي وقبوله.أما الانزياح فيظهر إزاء هذا على نوعين:إنه إما خروج على الاستعمال المألوف للغة، وإما خروج على النظام اللغوي نفسه، أي خروج على جملة القواعد التي يصير بها الأداء إلى وجوده، وهو يبدو في كلا الحالين، كما يمكن أن نلاحظ، وكأنه كسر للمعيار. غير أنه لا يتم إلا بقصد من الكاتب أو المتكلم.و هذا ما يعطي لوقوعه قيمة لغوية وجمالية ترقى به إلى رتبة الحدث الأسلوبي. (10)

جذور الانزياح في المدونة النقدية العربية القديمة:

و لقد عالج النقاد العرب القدامى قضية الانزياح تحت مسمّى آخر، ألا وهو " مصطلح العدول" وهو أيضا من شجاعة العربية كما قالوا عنه في كتاباتهم النقدية والبلاغية، ومن العدول نجد الاستعارة والحذف والحقيقة والمجاز، والالتفات، والتقديم والتأخير،" ولعلّ مما يؤكد أهمية الانزياح أنه لا ينحصر في جزء أو اثنين من أجزاء النص. وإنما له أن يشمل أجزاء كثيفة متنوعة متعددة. فإذا كان قوام النص لا يعدو أن يكون في النهاية إلا كلمات وجملا، فإنّ الانزياح قادر على أن يجيء في الكثير الكثير من هذه الكلمات وهذه الجمل.

أقسام الانزياح:

وربما صحّ من أجل ذلك أن تنقسم الانزياحات إلى نوعين رئيسين تنطوي فيهما كل أشكال الانزياح.

فأما النوع الأول فهو ما يكون فيه الانزياح متعلقا بجوهر المادة اللغوية مما سماه كوهن" الانزياح الاستبدالي"(11) وأما النوع الآخر فهو يتعلق بتركيب هذه مع جاراتها في السياق الذي ترد فيه؛ سياقا قد يطول أو قد يقصر، وهذا ما سمّي " الانزياح التركيبي".

وتمثّل الاستعارة عماد الانزياح الاستدلالي، ويمكن أن نجد له تمثيلا في بيت فاليري الذي أورده جان كوهن: هذا السطح الهادئ الذي تمشي فيه الحمائم(12)

إذ إنّ السطح في سياق القصيدة يعني البحر. أما الحمائم فتعني السفن. ولو أنّ البيت كتب بالبحر والسفن لما كانت فيه أية شاعرية؛ فالواقعة الشعرية إنما بدأت منذ أن دعي البحر سطحا، ودعيت البواخر حمائم. (13)و يمكن أن نشرح هذه العلاقة الانزياحية كالآتي:

(1)البحر --- الذي تمشي فيه السفن (الدرجة صفر للتعبير).

(2)السطح الهادئ --- الذي تمشي فيه الحمائم (الانزياح هنا يمثل حدثا أسلوبيا).

ويمثل هذا عند كوهن خرقا لقانون اللغة؛ أي انزياحا لغويا يمكن أن ندعوه كما تدعوه البلاغة صورة بلاغية، وهو وحده الذي يزود الشعرية بموضوعها الحقيقي. ولئن لم يصرح كوهن ههنا بالاستعارة تصريحا واضحا فإنه في موضع آخر يعزو لها كل فضل للشعر(14)، وتراه يقول: إن:"المنبع الأساسي لكل شعر هو مجاز المجازات؛ هو الاستعارة".(15)

وهكذا تشكل اللغة من وجهة نظر النقد الحديث منطلقا رئيسيا في دراسة الخطابات وتصنيفها، لأن الخطابات تتمايز فيما بينها بطريقة استخدامها للّغة، فكلما التزم الخطاب بالقوانين المعيارية التي ينتمي إليها محتفظا بالدلالة المعجمية المتواضع عليها للألفاظ مبتعدا عن التحريف والتشويه في قوانين اللغة، زادت صلته بالنثر العلمي الذي يتسم بالمباشرة والتقريرية في الأسلوب، فهو ينتمي إلى ما أسماه رولان بارت بالدرجة الصفر للكتابة.(16)

وإذا عمد الخطاب إلى تحطيم قوانين اللغة العادية مقيما على أنقاضها قوانينه وأنظمته الخاصة فهو ينتسب حتما إلى الخطاب الأدبي ولا سيما الشعري منه الذي يمثل الشكل الأقوى للأدب، والدرجة القصوى للأسلوب.(17)

وقد حدّد كوهن الأسلوب بخط مستقيم يمثل طرفاه قطبين، القطب النثري الخالي من الانزياح، والقطب الشعري الذي يصل فيه الانزياح إلى أقصى درجة، ويتوزع بينهما مختلف أنماط اللغة المستعملة فعليا، وتقع القصيدة قرب الطرف الأقصى، كما تقع لغة العلماء، بدون شك، قرب القطب الآخر. (18)

الانزياح التركيبي:

ويحدث مثل هذا الانزياح من خلال طريقة في الربط الدوال بعضها ببعض في العبارة الواحدة أو في التركيب والفقرة.و من المقرر أنّ تركيب العبارة الأدبية عامة والشعرية منها على نحو خاص، يختلف عن تركيبها في الكلام العادي أو في النثر العلمي: فعلى حين تكاد كلمات تخلو هذين الأخيرين إفرادا وتركيبا من كل ميزة أو قيمة جمالية فإن العبارة الأدبية أو التركيب الأدبي قابل لأن يحمل في كل علاقة من علاقاته قيمة أو قيما جمالية. فالمبدع الحق هو من يمتلك القدرة على تشكيل اللغة جماليا بما يتجاوز إطار المألوفات، وبما يجعل التنبؤ بالذي سيسلكه أمرا غير ممكن. ومن شأن هذا إذن أن يجعل متلقي الشعر في انتظار دائم لتشكيل جديد.

ومن هنا نجد بعض الغربيين - ومنهم كوهن- يؤكدون على أهمية الانزياح التركيبي، وخاصة قضية التقديم والتأخير التي يسميها كوهن بـ "الانزياح النحوي"(19) .

وهناك من أدرج مصطلحين ضمن الانزياحات التركيبية، وهما الحذف والإضافة،" إذ يلاحظ في الشعر حذف أشياء لا ترى محذوفة في الكلام العادي، وذكر أشياء لا ترى في الكلام العادي. ولكن ذلك لا ينسحب على كل حذف وإضافة، لأن ثمة في الكلام العادي أيضا حذفا وإضافة. وعلى ذلك لا يعد هذان انزياحا إلا إذا حققا غرابة ومفاجأة وإلا إذا حملا قيمة جمالية ما" (20).

ونجد صلاح فضل قد ربط بين التقديم والتأخير وبين الحذف والإضافة، فرأى إمكانية أعتبار التقديم والتأخير" من قبيل الحذف والإضافة لأنهما يتضمنان حذف عنصر من مكانه أو موضعه وإضافته إلى موقع ليس له".(21)

وقد تفطنت المدونة النقدية العربية القديمة إلى دور الانزياح أو العدول في قيمة العمل الإبداعي، لما له من خرق أفق انتظار المتلقي، وكسر للرتابة المملّة.و لذلك " يعد المستوى التركيبي من أهم المستويات اللغوية التي يعتمد عليها الباحثون في دراستهم للشعرية، حيث إنهم يتخذون من القواعد النحوية معيارا لغويا صارما ينطلقون منه إلى رصد ظاهرة شعرية مهمّة ألا وهي: ظاهرة الانزياح التركيبي التي تقوم على خرق القوانين المعيارية للنحو بغية تحقيق سمات شعرية جديدة تعجز عنها اللغة في حال تمسكها بأبعادها المعيارية الصارمة.

والقواعد النحوية لا تقل في هذا الدور المعياري عن الدلالات الوضعية أو العلاقات الإسنادية كما أوضحنا سابقا، إذ أنمها تشكل المرجع الذي يتم من خلاله التعرف إلى المواضع الأصلية الثابتة للكلام، وهذه المعرفة هي التي تسعف المتلقي في الكشف عن مواطن الانحراف التركيبي الواردة في أي نص أدبي.

أشكال الانزياح التركيبي عند ابن جنّي:

لقد قد تنبّه تراثنا اللغوي والنقدي للقيمة الفنية لهذا البعد الانزياحي الذي يشكل محورا مهما من محاور الشعرية الحديثة، وتجلّى ذلك من خلال وضع ابن جنّي بعض أشكال الانزياح التركيبي كالحذف والزيادة والتقديم والتأخير (22)ضمن ما أسماه بـ : شجاعة العربية.

يقول ابن جني في باب : شجاعة العربية" اعلم أن معظم ذلك إنما هو الحذف والزيادة والتقديم والتأخير والحمل على المعنى والتحريف.

(و) قد حذفت العرب الجملة والمفرد والحرف والحركة . وليس شيء من ذلك إلا عن دليل عليه . وإلا كان فيه ضرب من تكليف علم الغيب في معرفته.

فأما الجملة فنحو قولهم في القسم : والله لا فعلت وتالله لقد فعلت . وأصله : أقسم بالله فحذف الفعل والفاعل وبقيت الحال - من الجار والجواب - دليلا على الجملة المحذوفة . وكذلك الأفعال في الأمر والنهي والتحضيض نحو قولك : زيدا إذا أردت : اضرب زيدا أو نحوه . ومنه: إياك إذا حذرته، أي: احفظ نفسك ولا تُضعها، والطريق الطريق وهلا خيرا من ذلك . وقد حُذفت الجملة من الخبر نحو قولك : القرطاس والله أي أصاب القرطاس . وخير مقدم أي قدمت خير مقدم . وكذلك الشرط في نحو قوله: الناس مجزيون بأفعالهم إن خيرا فخيرا وإن شرا فشرا أي إن فعل المرء خيرا جُزي خيرا وإن فعل شرا جُزي شرا . ومنه قول التغلبي :(إذا ما الماءُ خالطها سخينا ...)(23)

كما نجد ابن جنّي يبرّر للشاعر عدوله عن الحقيقة إلى المجاز،قائلا:" وإنما يقع المجاز ويعدل إليه عن الحقيقة لمعانٍ ثلاث، وهي الاتساع والتوكيد والتشبيه، فإنْ عدِم هذه الأوصاف كانت الحقيقة البتة".(24)

وقوله: كانت الحقيقة البتة، أي لا وجود للانزياح مطلقا، وهو ما عبر عنه النقد الحديث بالدرجة صفر للتعبير.

كما نجد ابن جنّي يفصّل الكلام كثيرا في باب التقديم والتأخير، ويعرض لوجوه كثيرة منه في كلام العرب، ويذكر ما يجوّزه علماء اللغة وما لا يجوز.و قد أهمل بعض الوجوه لأنها معلومة الحال (25)

أمّا عن ما للتقديم والتأخير من أثر فنّي فإن هذه الظاهرة في الأدب تقوم على " أساس انتهاك نظام الرتبة في اللغة أو كما يقول " كوهن" على أساس الانزياح عن القاعدة التي تمس ترتيب الكلمات، بحيث يعمد المبدع إلى تحريك الكلمات عن أماكنها الأصلية إلى أماكن أخرى جديدة، فيقدم ما حقه التأخير كالخبر أو المفعول به، ويؤخر ما استحق التقديم كالمبتدأ أو الفعل. ويكون ذلك لغرض فنّي أو جمالي يودّ تحقيقه.(26)

سيبويه والانزياح:

ويمكن أن نذكر من البلاغيين والنحويين العرب الذين التفتوا إلى هذه الظاهرة، العالم اللغوي والنحوي" سيبويه " الذي تنبّه إلى الأثر الدلالي لها وأنّ من أغراض التقديم والتأخير العناية والاهتمام، وإحداث الأثر لدى المتلقي، إذ نجده يقرر هذه الحقيقة قائلا:" كأنهم إنما يقدّمون الذي بيانه أهم لهم وهم ببيانه أعنى، وإن كان جميعا يهمانهم ويعنيانهم".(27)

نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني وعلاقتها بالانزياح:

تعد نظرية النظم عند عبد القاهر الجرجاني من أهم النظريات النقدية التي ألقت الضوء على هذه الظاهرة، منبّهة لقيمتها الفنية وأكثر ما تمثّل ذلك في الحديث عن ظاهرتي:

(1)التقديم والتأخير

(2)الحذف.

عند حديث الجرجاني عن التقديم والتأخير، نجده يدرك أهمية هذه الوسيلة الشعرية من الناحية الفنية ويتجلى ذلك في الفصل الخاص الذي عقده لها في كتابه دلائل الإعجاز، تناول فيه بعض الشواهد الشعرية والقرآنية التي تؤكد أثرها البالغ في إضفاء الصبغة الجمالية على الصياغة. يقول:" هو باب كثير الفوائد، جم المحاسن، واسع التصرف، بعيد الغاية. لا يزال يفتر لك عن بديعة، ويفضي بك إلى لطيفة. ولا تزال ترى شعراً يروقك مسمعه، ويلطف لديك موقعه، ثم تنظر فتجد سبب أن راقك، ولطف عندك أن قدم فيه شيء وحول اللفظ عن مكان إلى مكان. (28)

فالتقديم والتأخير بابٌ:

1-كثير الفوائد

2-جم المحاسن

3- واسع التصرف

4-بعيد الغاية

5- لا يزال يفتر لك عن بديعة

6- يفضي بك إلى غاية

وكل هذه العناصر الجمالية الممتعة، التي تروق السامع وتلطف لديه بسبب:" أن قدم فيه شيءٌ وحُوِّل اللفظ عن مكان إلى مكان".

أما عن الحذف فيقول: هو بابٌ دقيقُ المسلك لطيفُ المأخذ عجيبُ الأمر شبيه بالسِّحر فإنَّك ترى به ترك الذِكْر أفصحَ من الذكر والصمت عن الإفادة أزيدَ للإفادة وتجدُك أنطقَ ما تكونُ إذا لم تنطِقْ وأتمَّ ما تكون بياناً إذا لم تُبِن . وهذه جملةٌ قد تنكرُها حتى تُخبَر وتدفَعُها حتى تنظَر. ثم يختتم باب الحذف مستخلصا نتيجة مفادها:" أفيكونُ دليلٌ أوضحَ من هذا وأبينَ وأجلى في صحة ما ذكرتُ لك من أنك قد ترى تركَ الذِّكر أفصحَ من الذكر والامتناعَ من أن يبرزَ اللفظُ منَ الضميرِ أحسنَ للتصوير" (30). ومما لاشك فيه "أن ظاهرة الحذف تسهم بنصيب وافر في خلق الفضاء الشعري واتساع آفاقه، وذلك يتم بإضافة المتلقي للعناصر الغائبة إلى المقول بالفعل. وهي إضافة تقوم على وفرة الاحتمالات وتنوعها بقدر ما توحي به الفجوات التي تتخلل العناصر الحاضرة في الشعر.(31). ولقد عدّ البلاغيون العرب هذا الفن- أعني الحذف والتقديم والتأخير وغير ذلك- ضربا من العدول، وللعدول هدف متوخّى، كالإطراب والإلذاذ وقطع السآمة والضجر، أو لضرورة يتطلّبها السياق .

ابن الأثير يعد الانزياح بابا مشكلا صعب المرتقى:

يرى ابن الأثير في التوسع مهارة وقدرة على منح اللغة مجالات أوسع، فيبين أن القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه لا يصح إلا لطلب التوسع في الكلام وهو سبب صالح، إذ التوسع في الكلام مطلوب.

ويبدو أنّ ابن الأثير يعني بالتوسع، هنا، التشخيص الذي يقوم على بث الحياة في الجمادات والحيوانات، مما ينتقل باللغة من دائرة المألوف إلى اللامألوف واللامتوقع.و من الجدير ذكره أنّ الانزياح تقنية فنية يستخدمها الشعراء للتعبير عن تجاربهم الشعورية، ولم يكن خاصا بشعراء عصر

معيّن، أمّا تجليات الانزياح، فتتبدّى في الاستعارة وبخاصة التشخيص، وتراسل الحواس والتضاد والتقديم والتأخير في التراكيب.(32)

ويذهب ابن الأثير إلى أن التوسع نوعان "وأما القسم الذي يكون العدول فيه عن الحقيقة إلى المجاز لغير مشاركة بين المنقول والمنقول إليه، فذلك لا يكون إلا لطلب التوسع في الكلام وهو سبب صالح إذ التوسع في الكلام مطلوب، وهو ضربان: أحدهما: يرد على وجه الإضافة، واستعماله قبيح؛ لبعد ما بين المضاف والمضاف إليه، وذاك لأنه يلتحق بالتشبيه المضمر الأداة، وإذا ورد التشبيه ولا مناسبة بين المشبه والمشبه به كان ذلك قبيحا، ولا يَستعمل هذا الضربَ من التوسع إلا جاهل بأسرار الفصاحة والبلاغة، أو ساهٍ غافل يذهب به خاطره إلى استعمال ما لا يجوز ولا يحسن، كقول أبي نواس:

بُحَّ صَوْتُ المَالِ مِمَّا ... مِنْكَ يَشْكُو وَيَصِيحُ (33)

فقوله: "بح صوت المال" من الكلام النازل بالمرة، ومراده من ذلك أن المال يتظلم من إهانتك إياه بالتمزيق، فالمعنى حسن، والتعبير عنه قبيح، وما أحسن ما قال مسلم بن الوليد في هذا المعنى:

تَظَلَّمَ المَالُ والأَعْدَاءُ مِنْ يَدِهِ ... لا زَالَ لِلْمَالِ وَالأَعْداءِ ظَلامَاً (34)

وكذلك ورد قول أبي نواس **:(مَا لِرِجْلِ المَالِ أَمْسَتْ ... تَشْتَكِي مِنْكَ الكَلاَلاَ) (35)**

فإضافة الرجل إلى المال أقبح من إضافة الصوت، ومن هذا الضرب قول أبي تمام:

وَكَحمْ أَرَزَتْ مِنْكُمُ عَلَى قُبْحِ قَدِّها ... صُرُوفُ النوَى مِنْ مُرْهَفٍ حَسَنِ الْقَدِّ (36)

فإضافة القد إلى النوى من التشبيه البعيد البعيد، وإنما أوقعه فيه المماثلة بين القد والقد، وهذا أدب الرجل في تتبع المماثلة تارة والتجنيس أخرى، حتى إنه ليخرج إلى بناءٍ يعاب به أقبح عيب وأفحشه. وكذلك ورد قوله: بَلَوْنَاكَ أَمَّا كَعْبُ عِرْضِكَ فِي الْعُلاَ ... فَعَالٍ وَأَمَّا خَدُّ مَالِكَ أَسْفَلُ(37)

فقوله: كعب عرضك وخد مالك، مما يستقبح ويستنكر ومراده من ذلك أن عرضك مصون ومالك مبتذل إلا أنه عبر عنه أقبح تعبير وأبو تمام يقع في مثل ذلك كثيرا. وأما الضرب الآخر من التوسع، فإنه يرد على غير وجه الإضافة وهو حسن لا عيب فيه، وقد ورد في القرآن الكريم كقوله تعالى: " ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين"(38).

فنسبة القول إلى السماء والأرض من باب التوسع لأنهما جماد ،والنطق إنما هو للإنسان لا للجماد، ولا مشاركة ههنا بين المنقول والمنقول إليه. وكذلك قوله تعالى:" فما بكت عليهم السماء والأرض وما كانوا منظرين" (39) وعليه ورد قول النبي-صلى الله عليه وسلم- فإنه نظر إلى أُحُدٍ يوما فقال:(هذا جبل يحبنا ونحبه)(40) فإضافة المحبة إلى الجبل من باب التوسع؛ إذ لا مشاركة بينه وبين الجبل الذي هو جماد.

وعلى هذا ورد مخاطبة الطلول، ومساءلة الأحجار، كقول أبي تمام:

أَمِيْدَانَ لَهْوِي مَنْ أَتَاحَ لَكَ الْبِلَى ... فَأَصْبَحْتَ مَيْدَانَ الصَّبَا وَالْجَنَائِبِ (41)

وكقول أبي الطيب المتنبي:

إِثْلِثْ فإِنَّا أَيُّهَا الطَّلَلُ ... نَبْكِي وَتُرْزِمُ تَحْتَنَا الإِبِلُ (42)

فأبو تمام سائل ربوعاً عافية وأحجارا دارسة، ولا وجه لها ههنا إلا مساءلة الأهل؛ كالذي في قوله تعالى::" وسْئَلِ القَرِيَةَ":(43) أي: أهل القرية، وكل هذا توسع في العبارة؛ إذ لا مشاركة بين رسوم الديار وبين فهم السؤال والجواب، وكذلك قال أبو الطيب المتنبي في أمره الطلل بأن يكون ثالثا لهما، أي الركب والإبل، وهذا واضح لا نزاع فيه.(44)

كما أننا نجد ابن الأثير يوجّه أرباب البيان إلى أسباب العدول، ويحذّر من الخوض فيه لأنه باب مشكل صعب المرتقى" واعلم أيها المتوشح لمعرفة علم البيان، أن العدول عن صيغة من الألفاظ إلى صيغة أخرى، لا يكون إلا لنوع خصوصية اقتضت ذلك، وهو لا يتوخاه في كلامه إلا العارف برموز الفصاحة والبلاغة، الذي اطلع على أسرارهما، وفتش عن دفائنهما، ولا تجد ذلك في كل كلام، فإنه من أشكل ضروب علم البيان وأدقها فهما، وأغمضها طريقا. (45)

أمّا النقاد والمبدعون المحدثون فقد عدّوا الانزياح التركيبي واحدا من أهم العناصر المُسهمة في وجود اللغة الشعرية، فها هو الشاعر" أراغون" يؤكد بأنه لا يتحقق الشعر إلا بقدر تأمل اللغة وإعادة خلق اللغة مع كل خطوة. وهذا يفترض تكسير الهياكل الثابتة للّغة وقواعد النحو وقوانين الخطاب. (46)

ويرى "ياكبسون"(47)أنّ المنحنيات المشوّهة بلطف التي تبرز على أرضية هذا الاطراد واللامتوقع والفجاءة والذهول تشكل بدورها جزءا جوهريا من المفعول الفنّي. (48).

الإحـــــــالات

1 الانزياح المنطقي من منظور جماعة" مو "/ الحسن بواجلابن،مجلة (علامات في النقد)-البلاغة والأسلوب،النادي الأدبي الثقافي بجدة،المجلد17، الجزء67، ذو القعدة 1439هـ، نوفمبر2008، ص:.167

2النص الشعري القديم وقضايا التلقي/ د عبد العزيز الحلوي، مطبعة الخليج العربي،تطوان-المغرب،ط:1، 2009،ص:.83

3ظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب/ د صالح علي سليم الشتيوي، مجلة جامعة دمشق،المجلد(21)،العدد(3+4)،2005، ص:83

4النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق / ابن ذريل عدنان، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق،1989،ص:25، كما ينظر:الانحراف مصطلحا نقديا/ موسى ربابعة، مجلة مؤتة للبحوث والدراسات – العلوم الإنسانية والاجتماعية، المجلد:10، العدد:04، 1995، ص:145-146

5 ينظر: أطياف الوجه الواحد/ نعيم الوافي،منشورات اتحاد الكتاب العرب-دمشق،1995 ،ص:92، كما ينظر: في القول الشعري/ يمنى العيد، دار توبقال، الدار البيضاء-ط1-1987،ص:20

6علم الأسلوب/ صلاح فضل،ص:154

7 بنية اللغة الشعرية / جان كوهن،ص:192-193

8Encyclopoedia Universalis.V 15.P 466.Paris 1980

9الموشح/ المرزباني، الهيئة المصرية العامة للكتاب.الاسكندرية-1978، ص:.295

10مقالات في الأسلوبية / د منذر عياشي، منشورات اتحاد الكتاب العرب- دمشق-1990،ص:79-81

11بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ترجمة محمد الوالي ومحمد العمري، دار توبقال للنشر- المغرب،ص:205

12المرجع نفسه،ص:42

13 ينظر:الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية / د أحمد محمد ويس، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت- لبنان ط:1- 2005،ص:111-112

14 الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية / د أحمد محمد ويس ،ص:112

15بنية اللغة الشعرية، جان كوهن ،ص:170

16بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ص:.24

17بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ص: .142

18شعرية الانزياح/ أميمة الرواشدة، منشورات أمانة عمّان الكبرى – الأردن، 2005 ،ص:53.

19 بنية اللغة الشعرية،ص:179

20الانزياح من منظور الدراسات الأسلوبية/ د أحمد محمد ويس،ص:125

21 بلاغة الخطاب وعلم النص/ د صلاح فضل، سلسلة عالم المعرفة، الكويت: 1992 ،ص:87

22 شعرية الانزياح/ أميمة الرواشدة، ص: 183-.184

23الخصائص / ابن جنّي، تحقيق: محمد علي النجّار، عالم الكتب – بيروت، د ت، ط2، ج:2، ص: .360

24الخصائص، ابن جني،ج:2، ص:442-444

25 ينظر: الخصائص/ ابن جنّي، ج:2 ،ص: 382- .390

26شعرية الانزياح/ أميمة الرواشدة، ص:187-.188
27الكتاب / أبو بشر عمرو بن عثمان سيبويه، تحقيق وشرح: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل- بيروت،ج1، ص:.34
28دلائل الإعجاز في علم المعاني/ عبد القاهر الجرجاني،دار الكتاب العربي - بيروت
ط1، 1995، تحقيق : د.محمد التنجي، ص:96 .
29دلائل الإعجاز في علم المعاني/ عبد القاهر الجرجاني، ص:.121
30 دلائل الإعجاز،ص:.140
31النص الشعري القديم وقضايا التلقي/د عبد العزيز الحلوي،ص:.94
32ظاهرة الانزياح الأسلوبي في شعر خالد بن يزيد الكاتب/ د صالح علي سليم الشتيوي،ص:86
33من قصيدة له يمدح فيه العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور، وأولها:
غرَّدَ الديك الصَّدُوحُ فاسقني طابَ الصَّبوحُ (ينظر الديوان، ص:68).
34من قصيدة له يمدح فيها يزيد بن مزيد الشيباني، وأولها قوله:
طيفَ الخيالِ حمدنا منكَ إلماما داويتَ سُقما وقد هيّجتَ أسقاما
35من قصيدة له يمدح فيها إبراهيم بن عبيد الله الحجبي، وأولها قوله:
هلْ عرَفتَ الرّبعَ أجلَى أهلَهُ عنهُ فزَالا (ينظر الديوان،ص:118) .
36من قصيدة له يمدح فيها موسى بن إبراهيم الرافقي ويعتذر إليه، وأولها قوله:
شهدتُ لقد أقوتْ مغانيكم بعدي ومحّتْ كما محّتْ وشائعُ من بُرْدِ.
37 من قصيدة له يمدح فيها أبا المستهلّ محمد بن شقيق الطائي، وأولها قوله:
تحمّلَ عنه الصبرَ يوم تحمّلوا وعادت صَباهُ في الصِّبا وهي شمألُ
38سورة فصلت، الآية .11
39سورة الدخان، الآية .29
40قال البخاري: حدثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا محمد بن جعفر عن عمرو بن أبي عمرو مولى المطلب بن حنطب أنه سمع أنس بن مالك رضي الله عنه يقول: خرجت مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- إلى خيبر أخدمه فلما قدم النبي -صلى الله عليه وسلم- راجعا وبدا له أحد قال :(هذا جبل يحبنا ونحبه) . ثم أشار بيده إلى المدينة قال: (اللهم إني أحرم ما بين لابتيها كتحريم إبراهيم مكة اللهم بارك لنا في صاعنا ومدنا.(الجامع الصحيح المختصر/ محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي- دار ابن كثير، اليمامة – بيروت -ط:3، 1407 – 1987 -تحقيق : د. مصطفى ديب البغا، ج:3، ص: 1058).
41 من قصيدة له يمدح فيها أبا دلف القاسم بن عيسى العجلي، وأولها قوله:
على مثلها من أربُعٍ وملاعبِ تُذالُ مَصُوناتُ الدموعِ السواكبِ
42هذا مطلع قصيدة يمدح فيها عضد الدولة، وبعده قوله:
أوْلا فلا عتْبٌ على طللٍ إنَّ الطلولَ لمثلها قُفْلُ
وهنا يريد الشاعر: كن أيها الطلل ثالثا في البكاء على فقد الأحبة؛ فنحن نبكي والإبل من تحتنا تساعدنا بحنينها، وهو قريب من قول البحتري: أطلبا ثالثا سوايَ فإنّي رابعُ العِيسِ والدُّجَى والبيدِ
43 سورة يوسف، جزء من الآية 82، والآية كاملة هي:" وسئل القريةَ التي كنّا فيها والعيرَ التي أقبلنا فيها وإنّا لصادقونَ"يوسف:82.
44المثل السائر/ ابن الأثير، ج:1 ،ص:348-351
45 المثل السائر / ابن الأثير، ج:2،ص:.12
46بنية اللغة الشعرية/ جان كوهن، ص: .176
47 قضايا الشعرية / رومان ياكبسون، ترجمة: محمد الوالي، ومبارك حنون، دار توبقال للنشر، المغرب، ط1 – 1988، ص: .83
48ينظر: شعرية الانزياح / أميمة الرواشدة، ص:183-184.